سُورَةُ الأَنفَالِ

مدنية وهي خمس وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ النفلُ: الغنيمةُ، سُمّيت به لأنها عطية من الله تعالى، زائدة على الأجر في الجهاد من الثواب الأخروي، والمراد هنا الغنائم، عن سعيد بن جبير قال: سألتُ ابن عباس عن سورة الأنفال، قال: نزلت في بدر،[1] وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود، والنسائي، والبيهقي والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال النبي ﷺ: من قتل قتيلاً فله كذا، فأمَّا المَشْيخة فثبتوا تحت الراية، وأما الشبان فتسارعوا إلى القتل والغنائم، وقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإنا كنا لكم ردْءاً، فاختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت ﴿يَسْأَلونَكَ عَنِ الأَنفَالِ﴾ الآية فقسم ﷺ الغنائم بينهم بالسوية[2]، أي يسألونك يا رسول

(١) أخرجه البخاري ٨/ ٢٣٠ ومسلم رقم ٣٠٣١ في تفسير سورة الأنفال.
(٢) أخرجه أبو داود رقم ٢٧٣٧ والبيهقي ٦/ ٢٩١ والحاكم ٢/ ١٣١ وصحَّحه.

الله عن حكم الأنفال ﴿قُلِ﴾ لهم ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي حكمها مختص به تعالى، يقسمها الرسول ﷺ كيفما أُمِر به ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الاختلاف في أمر الغنائم، وحاصل الجواب يا أيها المؤمنون إنّ ما وعدتكم به بإذن الله تعالى، وقد ملكني الله سبحانه هذه الغنائم، وهو أعلم بالحكمة، فاتقوا الله من عدم الرضا بذلك، ومن هنا يعلم حسن الأمر بالتقوى ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الحال التي بينكم بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله، وتسليم أمره إلى الله ورسوله ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في كل ما يأمر وينهى عنه، فإن في ذلك مصالح لا تعلمونها، وإنما يعلمها الله ورسوله، وذكرُ الاسم الجليل في الأمرين، لتربية المهابة، وتعليل الحكم، وذكرُ الرسول ﷺ مع الله تعالى لتعظيم شأنه، وإظهار شرفه والإيذان بأن طاعته طاعةٌ لله عزَّ وجل ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم كاملي الإيمان، فإن كمال الإيمان بهذه الثلاثة: طاعة الأوامر، والاتقاء عن المعاصي، وإصلاح ذات البين، بالعدل والإحسان، ويؤيد إرادة الكمال قوله سبحانه:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إذ المراد به الكاملون في الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فزعت لذكره استعظاماً له، وتهيباً من جلاله، وقيل: هو الرجل يهمُّ بالمعصية، فيقال له: اتَّقِ الله، فينزع عنها خوفاً من عقابه، والاطمئنان المذكور في قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القُلوبُ﴾ لا ينافي الوَجَل والخوف، لأنه عبارة عن ثلج الفؤاد بنور المعرفة، وهو يجامع الخوف ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي آيات القرآن ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ لاطمئنان النفس، ورسوخ اليقين، بتظاهر الأدلة والعمل بموجبها،

والأصوبُ أن نفس التصديق يقبل القوة، وهي التي عبَّر عنها بالزيادة، للفرق النيِّر بين يقين الأنبياء، وبين يقين آحاد الأمة، وهذا أحد أدلة من ذهب إلى أن الإيمان يقبل الزيادة والنقص، وهو مذهب الجم الغفير من الفقهاء والمحدّثين، لكثرة الظواهر الدالة على ذلك،[1] وذهب كثير من المتكلمين إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، لأنه اسم للتصديق والإذعان، ولا يتصور فيه الزيادة والنقصان!! ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي يفوّضون إليه أمورهم، ولا يخشون ولا يرجون إلا إيَّاه، وهذه المراتب الثلاثة من أعمال القلوب، وقد أتبعها بصفتين من أعمال الجوارح، فقال جلَّ وعلا.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة بحدودها، وأركانها، وشرائطها، في أوقاتها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي أعطيناهم من الأموال ﴿يُنفِقُونَ﴾ أي يتصدقون فيما أمر الله تعالى به، وتدخل فيه الزكاة، والنفقة، وسائرُ الخيرات.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المتصفون بالصفات الحميدة المذكورة ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ صدقاً بلا شك، لأنهم حقَّقوا إيمانهم، بأن ضمُّوا إليه أفاضل الأعمال القلبية. روي عن الحسن رحمه الله أن رجلاً سأله أمؤمنٌ أنتَ؟ قال: إن كنتَ سألتني عن الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ونحو ذلك فأنا مؤمن، وإن كنت سألت عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ﴾ الآية فلا أدري أنا منهم، أو لا؟ ﴿لَهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ كرامةٌ، وعلو منزلة رفيعة، درجات كثيرة ومختلفة، فإن قيل: أليس أن المفضول إذا علم حصول درجة عالية للفاضل، فإنه يتألم قلبه؟ قلنا: إن استغراق كل واحد في سعادته الخاصة به، تمنعه من حصول

---

(١) الشواهد كثيرة على زيادة الإيمان أو نقصه، منها قوله سبحانه: ﴿فأمَّا الذينَ آمنُوا فَزَادتْهُمْ إيماناً وهم يَسْتَبشِرُونَ﴾ وقوله جلَّ ثناؤه: ﴿ليَزْدَادُوا إيماناً فَوْقَ إيمانِهِمْ﴾.

الحقد والحسد ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لما فرط منهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة صاف عن كد الاكتساب، وخوف الحساب، لا ينقضي أمدُه ولا ينتهي عدده.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بسبب الحق الذي وجبَ عليك، وهو الجهاد، والمرادُ من البيت مسكنه ﷺ أو المدينةُ نفسُها لأنها مثواه، وإضافة الإخراج إلى الرب إشارة إلى أنه كان بالوحي، ومعنى الآية حالهم هذه في كراهة ما وقع في أمر الأنفال، كحال إخراجك من بيتك في كراهتهم له وهو حق ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ الخروج إما لعدم الاستعداد للقتال، أو للنفرة الطبيعية عنه، وهذا مما لا يدخل تحت القدرة والاختيار، فلا يرد أنه لا يليق بمنصب الصحابة. وقصة بدر على ما روى جماعة أن عير قريش أقبلت من الشام، وفيها تجارة عظيمة، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ، فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقيها لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا بلغ الخبر بمكة، فنادى أبو جهل: النَّجَاءَ النَّجَاءَ فخرج أبو جهل بجمع من أهل مكة، فقيل له: إن العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع، فقال: لا والله لا نرجع، حتى نرد بدراً، فننحر الجَزُور، ونشرب الخمور، وتضرب على رؤوسنا القينات، أي المغنّيات، وتهابنا العرب، فمضى بهم إلى بدر، فنزل جبريل فقال: يا رسول الله: إن الله قد وعدكم إحدى الطائفتين، فاستشار النبي ﷺ أصحابه، فقال بعضهم: إنا خرجنا

للعير، فقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: لم تخبرنا عن القتال، وإنما أخبرتنا عن العير فدع العدوَّ، فتغيَّر وجهه ﷺ فقام عند ذلك أبو بكر وعمر فأحسنا الكلام، ثم قام سعد ابن عبادة فقال: يا رسول الله انظر أمر ربك فامضِ بنا إلى ما تريد، لا يتخلَّف عنك رجل من الأنصار، ثم قام المقداد فقال: «يا رسول الله امضِ لما أمرك الله فإنَّا معك، لا نقول لك، كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذهب أنتَ وربُّكَ فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ ولكن نقاتل عن يمينك وشمالك، فتبسم ﷺ وقال: سيروا على بركة الله»[1] وبهذا تبين أن بعض المؤمنين كانوا كارهين، وبعضهم لم يكن كذلك وهم الأكثر كما تشير إليه الآية الكريمة.

﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ ﴾ في إيثارك الجهاد بإظهار الحق لإيثارهم تلقّي العير عليه ﴿ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ ﴾ الحق لهم بإعلامك أنهم ينصرون أينما توجهو ويقولون ما كان خروجنا إلا للعير، وهلاَّ قلت لنا القتال لنستعد له ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ أي يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه، وكان ذلك لقلة عددهم، وعدم تأهبهم، فقد روي أنهم كانوا ثلثمائة وخمسة عشر رجلاً فيهم فارسان، وكان المشركون ألفاً، قد استعدُّوا للقتال.

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ ﴾ بيان لجميل صنع الله عزَّ وجلَّ بالمؤمنين، مع ما بهم من قلة الحزم، وكثرة الخوف، أي اذكروا يا معشر المؤمنين وقت وعد الله تعالى إياكم، إحدى الطائفتين، وهما: العير أو النفير ﴿ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ أي كائنة لكم تتصرفون كيف شئتم ﴿ وَتَوَدُّونَ ﴾ أي

---

(١) مقالة المقداد للنبي ﷺ أخرجها البخاري ٧/ ٢٨٧ في المغازي، وفيها قوله: لا نقول لك كما قال قوم موسى ﴿اذهب أنتَ وربُّك فقاتلا﴾ ولكنَّا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك، فأشرق وجه النبي ﷺ وسرَّه قولُه.

تريدون وتحبون ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ لقلة عددها، وكثرة مالها، والشوكةُ مستعار من واحدة الشوك، والشوكة شدة البأس وتطلق على السلاح ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أي يثبته ويُعليه ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ بآياته المنزلة ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ آخرهم ويستأصلهم، والمعنى: أنتم تريدون الغنيمة، والله عزَّ وجلّ يريد العزة لكم والنصر، وشتَّان بين المرادين.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ أي لهذه الغاية فعل ما فعل، ومعنى إحقاق الحق إظهار حقيته، وكذا إبطال الباطل ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك أعني إحقاق الحق وإبطال الباطل، والمراد بهم المشركون لا من كره الذهاب إلى النفير لأنه لا جرم منهم.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ الاستغاثةُ: طلب الغوث، وهو التخليص من المكروه، ومن الشدة، وصيغة المضارع لاستحضار صورتها العجيبة، والظاهر أن المستغيثين هم المؤمنون، وقال الزهري إنه رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فقد قال ﷺ: «اللهم أنجزْ لي ما وعدتني، اللهمَّ إن تهلك هذه العصابةُ من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»[1] كما دعا على

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٥/ ٢٥١ وتتمته: يهتف بربه ماداً يديه، مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه فقال: يا نبيَّ الله كفاك مناشدتك ربك، إنه سينجز لك ما وعدك، فنزلت: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم . . .﴾ الآية.

أناس معينين من صناديد الكفر، الذين آذوه وهو بمكة كما ورد من رواية ابن مسعود: «اللهم عليك بقريش ـ أي بهلاكهم ـ اللهمَّ عليك بأبي جهل بن هشام، وعُتبةَ بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأُمية بن خلف، وعُقبة بن أبي مُعَيط، قال ابن مسعود: فوالذي بعث محمداً بالحق، لقد رأيتُ الذين سمَّى الرسولُ ﷺ صرعى ثم سُحِبُوا إلى قليب بدر...»[1] الحديث، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ أي فأجاب دعاءكم، عقب استغاثتكم إياه على أتم وجه ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ أي بأني ممدكم أي مرسل إليكم مدداً ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي متتابعين يردف بعضهم بعضاً وراء كل مَلَكٍ مَلَكٌ آخر، والأكثرون على أن الملائكة قاتلت يوم بدر، وفي الأخبار ما يدل عليه، وقيل: إنهم لم يقاتلوا، وإنما نزلوا ليكثّروا سواد المسلمين ويثبتوهم، ويدل عليه قوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي ما جعل الله الإمداد إلا بشارة لكم بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ﴾ أي بالإمداد ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ وتسكن إليه نفوسكم ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي حقيقة النصر على الإطلاق، ليست إلاَّ من عنده عزَّ وجلَّ، فعلى المسلم أن لا يتوكل إلا على الله ولا يحسب النصر بالأسباب، ولا ييأس بفقدانها لأن النصر بيد الله، والإعانة منه سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي غالبٌ لا يُغالب في حكمه ولا يُنازع ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل كل ما يفعله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٧/ ٣٠١ وتتمته «فألقوا فيها، فوقف النبي ﷺ على القليب، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدتُ ما وعدني ربي حقاً، فقال عمر: يا رسول الله، تكلم أجساداً لا أرواح فيها؟ فقال له ﷺ: والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ .

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ ﴾ أي يجعله غاشياً لكم ومحيطاً بكم والنعاس أول النوم قبل أن يثقل ﴿ أَمَنَةً ﴾ أي أمناً مما حصل لكم من الخوف ﴿ مِّنْهُ ﴾ تعالى، أي فتنعسون أمناً كائناً منه تعالى، وكان ذلك النعاس معجزة، لأنه خارق للعادة، لأن حصول النوم، عند الخوف الشديد بعيد عادة، وبالنوم حصلت لهم الراحة، وزال عنهم الكلال والعطش، وتمكنوا من قتال عدوهم، وكان ذلك النوم نعمة في حقهم من الله تعالى ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ وكان هذا قبل النعاس كما روي عن مجاهد ﴿ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ من الحدث الأصغر والأكبر ﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ أي وسوسته وتخويفه، رُوي عن ابن عباس أن المشركين سبقوا المسلمين إلى ماء بدر، وأصبح المسلمون على غير ماء، واحتلم بعضهم في النوم، وكانت منازلهم على كثيب رمل أعفر، تسوخ فيه الأقدام، فوسوس الشيطان إليهم وقال: يا أصحاب رسول الله، تزعمون أنكم على الحق، وأنكم تصلون على غير وضوء، وعلى الجنابة، وقد عطشتم ولو كنتم على الحق لما سبقكم المشركون إلى الماء، فحزنوا حزناً شديداً، فأنزل الله تعالى المطر حتى جرى الوادي، وتوضؤوا واغتسلوا، وسقوا الركاب، وملؤوا أسقيتهم، وتلبَّدت الأرضُ، وزالت عنهم وسوسة الشيطان، وكان ذلك دليلاً على حصول النصر ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ أي يقويها بالثقة بلطف

الله تعالى ونصره، بمشاهدة طلائعه، أتى بـ«على» قصداً للاستعلاء وفيه إيماء إلى أن قلوبهم قد امتلأت من ذلك حتى كأنه علا عليها، وفي ذلك من إفادة التمكن ما لا يخفى ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ﴾ بالماء ﴿ٱلْأَقْدَامَ﴾ فلا تسوخ في الرمل، والضمير للربط أي جعلهم صابرين غير فارين ولا متزلزلين.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ أي بأني بينكم على تثبيت المؤمنين ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ المراد بالتثبيت: الحملُ على الثبات في موطن الحرب، والجدُّ في مقاساة شدائد القتال، وكان الملك يتشبَّه بالرجل، فيأتي ويقول: إني سمعت المشركين يقولون: لئن حملوا علينا لنُكشفنَّ، ويمشي في الصفين ويقول: أبشروا فإن الله تعالى ناصركم، وقال الزجاج: كان بأشياء يلقونها في قلوبهم بالإلهام ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ الخوف تفسير لقوله تعالى: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ وكان ذلك نعمة من الله على المؤمنين، والرعبُ: الخوفُ وانزعاج النفس، بتوقع المكروه ﴿فَٱضْرِبُوا۟﴾ أمر للملائكة وقيل: بل أمر للمؤمنين، والآية ظاهرة فيما يدعيه الجمهور، من وقوع القتال من الملائكة ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي أعاليها التي هي المذابح أو الرؤوس، وقيل فوق هنا بمعنى على، أي فاضربوهم على أعناقهم ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي أطراف اليدين والرجلين، وقيل: هي الأصابع.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي بسبب كفرهم وعصيانهم أمر رسولهم ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الإظهار في موضع الإضمار، لتربية المهابة، والإشعار بعلة الحكم، والمراد من المشاقة هنا المخالفة، أي ذلك العذاب واقع عليهم بسبب مخالفتهم لمن لا ينبغي مخالفته بوجه من الوجوه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي يعاقبه الله تعالى، فإنَّ عقاب الله شديد العقاب.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الخطاب مع الكفرة، على طريق الالتفات، وهو إشارة إلى القتل والأسر الذي نزل بهم ﴿فَذُوقُوهُ﴾ عاجلاً في الدنيا لأن ذلك

يسير بالإضافة إلى المؤجل، الذي أعدَّه لهم في الآخرة، ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ الواو بمعنى مع، أي ذوقوا هذا العذاب العاجل، مع أن لكم عذاب النار في الآخرة آجلاً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ خطاب عام للمؤمنين فيما سيقع من الوقايع والحروب، جيء به في تضاعيف القصة اعتناءً بشأنه ومبالغة في حقهم على المحافظة عليه ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾ كثيراً بحيث يرى لكثرتهم كأنهم يزحفون، وهو مصدر زحف الصبيُّ، إذا دبَّ على مقعده قليلاً قليلاً، سمي به الجيش المتوجه إلى العدو، لأنه لكثرته يرى كجسم واحد، فيحس حركته في غاية البطاءة، أي زاحفين نحوكم ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ أي أدباركم فضلاً عن الفرار، بل قابلوهم وقاتلوهم والمعنى: إذا لقيتم الكفار فلا تولوهم الأدبار بالانهزام، وعدل عن لفظ الظهر إلى الأدبار، تقبيحاً للانهزام.

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم اللقاء ﴿دُبُرَهُۥٓ﴾ فضلاً عن الفرار ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي تاركاً موقفه إلى موقف أصلح، للقتال منه، أو متوجهاً إلى قتال طائفة أخرى، أهمُّ من هؤلاء، وإما بالفرار للكرِّ بأن يخيِّل عدوه أنه منهزم، ليغرَّه ويخرجه من بين أعوانه، ثم يعطف عليه وحده، أو مع من في الكمين من أصحابه، وهو من باب خُدَع الحرب ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أي منضماً إلى جماعة أخرى من المسلمين ليقاتل معهم ﴿فَقَدْ بَآءَ﴾ أي رجع ﴿بِغَضَبٍ﴾ عظيم كائن ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ أي ومسكنه الذي يأوي إليه هو نار جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جهنم

مأوى له، والفرار من الزحف من أكبر الكبائر، وهذا إذا لم يكن العدو أكثر من الضعف، لقوله تعالى: ﴿الآنَ خَفَّفَ الله عَنْكُمْ﴾ وعلى هذا أكثر أهل العلم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الفاء جواب شرط مقدر كأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك، فلم تقتلوهم أنتم بقوّتكم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ خطاب للرسول ﷺ، وهو إشارة إلى رميه ﷺ فلما التقى الجمعان، أتاه جبريل فقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فتناول ﷺ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم، وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلاَّ شُغل بعينيه، والمعنى: وما فعلتَ أنت يا محمد، تلك الرمية حقيقة، حين فعلتها صورة، ولكنَّ الله خلقها، حين باشرتها على أكمل وجه، حيث أوصلها إلى أعينهم جميعاً، واستدل بالآية على أن أفعال العباد بخلقه تعالى، وإنما لهم كسبها ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ﴾ أي ليعطيهم من عنده تعالى ﴿بَلَآءً حَسَنًا ۚ﴾ أي عطاءً حسناً، بالنصر والغنيمة، والأجر والثواب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائهم واستغاثتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وأحوالهم.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى جميع ما ذُكر ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ﴾ مضعف ﴿كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي المقصد من قتالهم إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين، وإبطال حيلهم وتآمرهم.

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ ۖ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ ﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم، وذلك أنهم حين أرادوا الخروج، تعلقوا بأستار الكعبة، وقالوا: اللهمَّ انصر أعلى الجندَيْن، وأهدى الفِئَتَيْن، وأكرم الحِزبَيْن، والمعنى: إن تستنصروا على الجندين وأهداهما ﴿ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ أي جاءكم النصرُ، سمى إهلاكهم نصراً على طريق التهكم، أي فقد جاءكم الهلاك، فالتهكم في الفتح، حيث وُضع موضع الهلاك ﴿ وَإِن تَنتَهُوا۟ ﴾ عن الكفر والحرب، ومعاداة الرسول ﷺ ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من الحرب الذي ذقتم غائلته لما في الانتهاء من السلامة من القتل والأسر ﴿ وَإِن تَعُودُوا۟ ﴾ لقتال النبي ﷺ ﴿ نَعُدْ ﴾ لما شاهدتموه من نصر ﴿ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ ﴾ أي لن تدفع عنكم ﴿ فِئَتُكُمْ ﴾ جماعتكم التي تجمعونها ﴿ شَيْـًٔا ﴾ من الإغناء أو المضار ﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ فئتكم ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالنصر والمعونة، لأن سنة الله عزَّ وجلَّ جارية، في نصر المؤمنين، وخذلان الكافرين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ ﴾ أي تتولوا ﴿ عَنْهُ ﴾ عن الرسول ﷺ وأعيد الضمير إليه ﷺ لأن المراد هو الأمر بطاعته، والنهي عن الإعراض عنه، وذكر طاعته تعالى للتمهيد، والتنبيه على أن طاعته ﷺ من

طاعته تعالى، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فقدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[1] ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ جملة حالية، واردة لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولي، أي لا تتولوا عنه ﷺ والحال أنكم تسمعون القرآن، الناطق بوجوب طاعته، سماع فهم وإذعان.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أي لا تكونوا بالمخالفة ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ أي كالكفرة والمنافقين الذين قالوا سمعنا بمجرد الادعاء، من غير فهم وإذعان ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي والحال أنهم لا يسمعون سماعاً ينتفعون به، ولا يفهمونه حق فهمه، والمنفي سماعٌ خاص، لكنه أتى به مطلقاً، للإشارة إلى أنهم نُزِّلوا منزلة من لم يسمع أصلاً، بجعلهم كالدواب والأنعام، ولهذا قال بعده:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ أي إن شر ما يدبُّ على الأرض، أو شرَّ البهائم ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ أي في حكمه وقضائه ﴿الصُّمُّ﴾ الذين لا يسمعون الحقَّ ﴿الْبُكْمُ﴾ الذين لا ينطقون به، وصفوا بهما لأن خلق الأذن واللسان لسماع الحق والنطق به، وحيث لم يوجد منهم شيء من ذلك، صاروا كأنهم فاقدون للجارحتين رأساً، ثم وُصفوا بعدم التعقل، بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ تحقيقاً لفجاعة سوء حالهم، فإن الأصم الأبكم، إذا كان له عقل، ربما يفهم بعض الأمور بالإشارة، ويهتدي بذلك إلى بعض مطالبه، وإذا كان فاقداً للعقل أيضاً فهو الغاية في الشرية وسوء الحال وبذلك يظهر كونهم شر الدواب، حيث أبطلوا ما به يمتازون عنها.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ شيئاً من جنس الخير الذي من جملته صرف قواهم إلى تحري الحق واتباع الهدى ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ سماع تدبر وتفهم، ولوقفوا على حقية الرسول ﷺ وآمنوا به وأطاعوه، ولكن علم الله تعالى أن لا خير فيهم فلم يسمعهم، لعدم الفائدة، وإليه أشير بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ

---

(١) سورة النساء، آية: ٨٠.

﴿أَسْمَعَهُمْ﴾ سماع تفهم ﴿لَتَوَلَّواْ﴾ ولم ينتفعوا به، وارتدوا بعد التصديق ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن قبوله عناداً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تكرير النداء مع وصفهم بنعت الإيمان لتنشيطهم إلى الإقبال على الامتثال بما يرد بعده من الأوامر ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بحسن الطاعة ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لما يورثكم الحياة الأبدية، في النعيم الدائم، ومن الجهاد الذي أعزكم الله به، كما روي ذلك عن عروة بن الزبير، وقال قتادة: القرآن لما روي أن النبي ﷺ مرَّ على أُبيٍّ بن كعب وهو يصلّي فدعاه فلم يجب وأسرع في صلاته ثم جاءه فقال ﷺ: «ما منعك من إجابتي؟ قال: كنت أصلي، قال: ألم تخبر فيما أوحي ﴿استَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحييكُم﴾ قال: بلى ولا أعود إن شاء الله تعالى»[1] قيل: إن الدعاء كان لأمرٍ لا يحتمل التأخير، وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله، كما إذا رأى أعمى وصل إلى بئر، ولو لم يحذره لوقع فيه ولهلك ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ أصل الحول ـ كما قال الراغب ـ تغير الشيء وانفصاله عن غيره، وباعتبار التغير قيل: حال الشيء يحول، وباعتبار الانفصال قيل حال بينهما كذا، وهذا غير متصور في حقِّ الله تعالى، فهو بيان عن غاية القرب من العبد، أي يصرّف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها، فيفسخُ عزيمته،

---

(١) أخرجه النسائي، وفي البخاري ومسلم أن ذلك وقع مع أبي سعيد بن المعلَّى، دعاه ﷺ وهو يصلي فلم يجبه، ثم أتاه فقال: يا رسول الله كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله عزَّ وجلَّ: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾؟ ثم قال له: لأعلمنك سورة هي أعظم سور القرآن.. وذكر الحديث، انظر فتح الباري على البخاري ٨/ ٣٠٧.

ويغيّر مقصده، وفيها تنبيه على أنه تعالى مطلع من مكنونات القلوب، وحث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها، قبل أن يحول الله بينه وبين قلبه بالموت، أو غيره وفي الحديث: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحدٍ، يُصرِّفه حيث يشاء»[1] أخرجه مسلم. ويراد به كمال التصرف فيه، كتصرفه في قلب واحد ﴿وَأَنَّهُۥٓ﴾ أي الله عزَّ وجل ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم، فسارعوا إلى طاعته وإلى طاعة رسوله.

﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ﴾ أي لا تختص إصابة عذابها، بمن يباشر الظلم منكم، بل يعمُّه وغيره، والمراد بالفتنة الذنب والمعصية كإقرار المنكر بين أظهركم، وظهور البدع، والتكاسل عن الجهاد، والخطاب إذا كان عاماً للأمة، وفسرت الفتنة بإقرار المنكر، لا يخبىء الأشكال على عموم الإصابة بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لأنه كما يجب على مرتكب الذنب الانتهاء عنه، يجب على الباقين رفعه، وإذا لم يفعلوا كانوا آثمين، فيصيبهم ما يصيبهم لإثمهم، لما رُوي عن أبي بكر الصدّيق قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده، أوشك أن يعمَّهمُ الله تعالى بعقاب»[2] ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره وكذا لمن أقر من انتهك محارمه.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٦٥٤ في القَدَر، وتتمته ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ مصرِّفَ القلوب، ثبِّتْ قلوبنا على طاعتك» ورواه الترمذي رقم ٢١٤١ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعَيْ الرحمن.

(٢) رواه الترمذي رقم ٣٠٥٩ في تفسير سورة المائدة، وأبو داود في الملاحم رقم ٤٣٣٨.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ أي في العَدَد وقلة السلاح والعُدَد ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في أرض مكة، يستضعفكم المشركون والخطاب للمهاجرين، وقيل: للعرب كافة، فإنهم كانوا أذلاء في أيدي فارس والروم ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ كفار قريش، أي واذكروا حالكم وقت قلتكم وذلتكم وخوفكم من اختطافكم ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ إلى المدينة وجعل لكم مأوى تتحصنون به عن أعدائكم ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ على الكفار أو بمظاهرة الأنصار يوم بدر أو بإمداد الملائكة ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من الغنائم، وقيل: هي عامة في جميع ما أعطاهم من الأطعمة والمنافع ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم الجليلة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾. في أبي لبابة وذلك لمَّا حاصر رسول الله ﷺ يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة، وسألوا رسول ﷺ الصلح على ما صالح عليه بني النضير على أن يسيروا إلى أريحا فأبى ﷺ إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان أبو لبابة مناصحاً لهم، لما أن ماله وعياله كان في أيديهم، فبعثه إليهم، فقالوا: ما ترى هل ننزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه، قال أبو لبابة: ما زالت قدماي عن مكانهما حتى علمتُ أني قد خنتُ رسول ﷺ

فنزلت الآية ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ أي ما ائتمنتم عليه من الدَّيْنِ وغيره فيما بينكم ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي وأنتم تعلمون وباله.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ أي محنة من الله تعالى، ليبلوكم فلا يحملنكم حبُّهم على الخيانة، كأبي لبابة، ولعل الفتنة في المال أكثر منها في الولد، ولذا قدمت الأموال على الأولاد، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ لمن آثر رضى الله عليهم، وراعى حدوده فيهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ﴾ بسبب ذلك الاتقاء ﴿فُرۡقَانٗا﴾ أي هداية ونوراً في قلوبكم، تفرقون به بين الحق والباطل ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ أي يسترها ويمحو ما سلف منها في الدنيا ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾ بالتجاوز عنها في الأخرى، فلا تكرار، وقيل: المراد ما تقدم وما تأخر، لأن الآية في أهل بدر، ففي الحديث «لعل الله تعالى اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[1] ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ تنبيه على أن ما وُعدوه على التقوى، فضلٌ منه وإحسان كما إذا وعد السيد عبده إنعاماً على عمله ثم أنه عز وجل لما ذكّر بقوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾ النعمة العامة للكل، ذكَّر نبيَّه ﷺ النعمة الخاصة به بقوله:

﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾

(١) طرف من حديث طويل أخرجه البخاري في المغازي، وانظره كاملاً في فتح الباري ٧/ ٣٠٥.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ تذكار لما مكرت قريش به ﷺ حين كان بمكة، ليشكر نعمة الله في خلاصه من مكرهم، والمعنى: واذكر إذ يمكرون بك، وقد اجتمعوا للمشاورة في شأنك في دار الندوة ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ بالوثاق وإليه ذهب الحسن ومجاهد، أو بالحبس في بيت كما روي عن عطاء ﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ كلهم بسيوفهم ﴿ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ من مكة، وذلك على ما ذكر ابن اسحق، أن قريشاً لما رأت أن رسول الله ﷺ قد كان له شيعة وأصحاب، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، فحَذِروا خروجَ رسول الله ﷺ فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمره، فقال أبو البختري: رأيي أن تحبسوه، فقال رئيسهم: بئس الرأي، يأتيكم من يقاتلونكم من قومه ويخلصه من أيديكم، وقال أبو الأسود: أن تخرجوه من أرضكم، فقال رئيسهم: بئس الرأي لأنه يفسد قوماً غيركم ويقاتلونكم، فقال أبو جهل: إني أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً فيضربوه ضربة فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل، ـ أي الفدية ـ عقلناه، فقال رئيسهم: صدق، فتفرقوا على رأيه[1]، فأتى جبريل فأخبره، وأمره بالهجرة، فبيَّت علياً في مضجعه، فخرج هو مع أبي بكر إلى الغار، وإلى هذه الحادثة تشير الآية الكريمة ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ﴾ أي ويحتالون ويتآمرون عليك يا محمد، ويدبر لك ربك ما يُبطل مكرهم، ويفضح أمرهم ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ أي مكره تعالى أنفذ من مكرهم، وأبلغ تأثيراً، فسمى تعالى إبطال تآمرهم، وردَّ كيدهم في نحورهم مكراً، على طريق المشاكلة أي أنه تعالى أبطل مكرهم، فإن مكره تعالى في خيريّته، أبلغ من مكر الغير في شرّيته[2].

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٨٠.

(٢) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٦/ ٢٧٥: ﴿ويمكر الله﴾ هو إبطال لمكرهم، وردٌّ له ودفع في صدره حتى لا ينجع، فسمي ذلك كله باسم الذنب الذي جاء ذلك من أجله، ولا يحسن في المعنى إلا هذا، وأما أن ينضاف المكر إلى الله عز وجل على =

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا ﴾ أي القرآن ﴿ قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ﴾ هذا قول النصر بن الحارث، وإسناده إلى الجمع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم، فإنه كان قاضيهم، أو قول الذين ائتمروا في أمره ﷺ وهذا من فرط عنادهم، وغاية مكابرتهم، إذ لو استطاعوا ذلك لفعلوا، فما منعهم أن يشاؤوا وقد تحدَّاهم وقرَّعهم بالعجز عشر سنين، فلم يعارضوا سورة منه مع أنفتهم، وفرط استنكافهم، وأن يُغلبوا خصوصاً في باب البيان وهم أساطينه وأربابه!! ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي ما هذا إلاّ ما يكتبونه من أخبار الماضين من الخرافات والأباطيل.

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قائل هذا النضر أيضاً على ما روي عن مجاهد وسعيد بن جبير، وأخرج البخاري عن أنس بن مالك أنه «أبو جهل»[1] وأخرج ابن جرير عن محمد بن قيس أن قريشاً قال بعضها لبعض: هل أكرم الله تعالى محمداً من بيننا؟ اللهم إن كان هذا.. الخ وهو أبلغ في الجحود من القول الأول، لأنهم عدُّوا حقيقته محالاً، فلذا

= ما يُفهم فيه في اللغة، فغير جائز فيه أن يقال: الله يمكر، وإنما قولنا ﴿ويمكر الله﴾ كما تقول في رجلٍ شتم الأمير، فقتله الأمير: هذا هو الشتم، فتسمي العقوبة باسم الذنب، وقوله ﴿خير الماكرين﴾ أي أقدرهم وأقواهم جانباً. اهـ.

(١) فتح الباري على البخاري ٨/٣٠٨.

علَّقوا عليها طلب العذاب، الذي لا يطلبه عاقل، والمعنى: إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً من عندك، فأمطر الحجارة علينا عقوبةً على إنكاره، أو ائتنا بعذاب أليم سواه، والمراد منه: التهكمُ، وإظهار الجزم على كونه باطلاً.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ جواب لكلمتهم الشنيعة، وبيان لموجب إمهالهم، لأن سنته تعالى أن لا يعذب قوماً عذاب استئصال، ما دام نبيُّهم بين أظهرهم، وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب، إذا هاجر ﷺ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ والمراد باستغفارهم: إما استغفار من بقي فيهم من المؤمنين المستضعفين بعد الهجرة، وإما دعاء الكفرة بالمغفرة، على معنى: أنهم لو استغفروا لم يُعذَّبوا.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾؟ أيْ أيَّ شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم؟ أي لاحظَّ لهم في ذلك، وهم معذَّبون لا محالة، وكيف لا يُعذَّبون ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي وحالهم الصد عن ذلك حقيقة كما فعلوا عام الحديبية، وحكما كما فعلوا برسول الله ﷺ وأصحابه حتى ألجؤوهم للهجرة وكانوا يقولون: نحن ولاة البيت فنصدُّ من نشاء، ونُدخل من نشاء، فردَّ الله عز وجلَّ هذا القول بقوله ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي ما كانوا مستحقين ولاية أمره مع شركهم ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾ أي ما أولياؤه ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي الذين يتقون الشرك ولا يعبدون غير الله، والمراد من المتقين المسلمون، وهذه المرتبة الأولى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن لا ولاية

لهم عليه كأنه نبه بالأكثر على أن منهم من يعلم ويعاند، أو أراد به الكلَّ، كما يُراد بالقلة العدم.

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ ﴾ أي دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة، والمراد بالبيت: المسجدُ الحرام الذي صدُّوا المسلمين عنه، والتعبير عنه بالبيت للإشارة إلى أنه بيت الله تعالى فينبغي أن يعظَّم بالعبادة، وهم لم يفعلوا ﴿ إِلَّا مُكَآءً ﴾ أي صفيراً وهو فعال بضم أوله كسائر أسماء الأصوات إلا ما شذ كالنداء، من مكا يمكو إذا صفر ﴿ وَتَصْدِيَةً ﴾ تصفيقاً مأخوذٌ من الصدى، ومساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب، أو عدم ولايتهم للمسجد، فإنها لا تليق بمن هذه صلاته، روي أنهم كانوا يطوفون عراة، الرجال والنساء مشبِّكين بين أصابعهم، يصفِّرون فيها ويصفِّقون، وقيل: كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبي ﷺ أن يصلي يخلطون عليه، ويرون أنهم يصلون أيضاً ﴿ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾ يعني: القتل، والأسر يوم بدر، وقيل: عذاب الآخرة ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ الباء للسببية، أي بسبب كفركم وضلالكم، اعتقاداً وعملاً.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ نزلت في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش، يطعم كلُّ واحد منهم كلَّ يوم عشر جُزُر، أو في أصحاب العير، فإنه لما أصيبت قريش ببدر، قيل لهم: أعينونا بهذا المال على حرب محمد، لعلنا ندرك منه

ثأرنا!! ففعلوا، والمراد بسبيل الله: دينُه ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي ندماً وغماً، لفواتها من غير مقصود، جعل ذاتها تصير حسرة، وهي عاقبة إنفاقها مبالغة، وضمير تكون للأموال على معنى تكون عاقبتها عليهم حسرة ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ أي في مواطن أخر بعد ذلك في الدنيا آخر الأمر، وهو من دلائل النبوة لأنه خبر قبل وقوعه فكان كما أخبر ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أصروا على الكفر من هؤلاء ولم يسلموا ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي يساقون لا إلى غيرها، والمقصودُ من هذا النص إخبار بأنهم لا يستفيدون من بذل أموالهم إلا الخيبة في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي الكافر من المؤمن، أو الفساد من الصلاح، واللام متعلقة بيحشرون، وقد يراد من الخبيث ما أنفقه المشركون لعداوة رسول الله ﷺ ومن الطيب ما أنفقه المسلمون لنصرته ﷺ ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ فيجمعه ويضمَّ بعضه إلى بعض، حتى يتراكبوا لفرط ازدحامهم، أو يضم إلى الكافر ما أنفقه، ليزيد به عذابه، كما يكون في الكانزين[1] ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ كله وأما المال المنفق في عداوة الرسول ﷺ وجعله في جهنم، لتكوى به جباههم وجنوبهم ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى الكفار ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي الكاملون في الخسران، لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ أي المعهودين، وهم أبو سفيان وأصحابه، أي قل لأجلهم ﴿ إِن يَنتَهُواْ ﴾ عما هم فيه من معاداة الرسول ﷺ بالدخول في الإسلام ﴿ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ منهم من ذنوبهم التي من جملتها المعاداة، والإنفاق في الضلال، وهذا يدلُّ على أن الكافر بعد الإسلام، لا يؤاخذ بشيء مما مَرَّ، وقال ﷺ «الإسلامُ يجبُّ ما قبله»[1] ﴿ وَإِن يَعُودُواْ ﴾ إلى قتاله ﷺ أو إلى المعاداة، على معنى: إن داوموا عليها ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي عاداتُ الله الجارية في الذين تحزَّبوا على الأنبياء، من نصر المؤمنين عليهم، وخذلانهم وتدميرهم.

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ ﴾ عمَّ الخطاب لزيادة ترغيب المؤمنين في القتال لتحقيق ما يتضمنه قوله سبحانه: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ من الوعيد ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ لا يوجد فيهم شرك، كما روي عن ابن عباس، والحسن، وقيل: المراد حتى لا يفتتن مؤمن عن دينه ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ وتضمحل الأديان الباطلة كلُّها، إما بهلاك أهلها جميعاً، أو برجوعهم عنها خشية القتل ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ ﴾ عن الكفر بقتالكم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيهم على انتهائهم عنه وإسلامهم.

﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ عن الإيمان ولم ينتهوا عن الكفر ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ ناصركم فثقوا ولا تبالوا بمعاداتهم ﴿ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ ﴾ لا يضيع من تولاه ﴿ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ لا يغلب من نصره.

---

(١) هذا طرف من حديث في قصة وفاة الصحابي «عمرو بن العاص» رضي الله عنه أخرجها مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان رقم ١٢١ وفيه قول النبي ﷺ: أمَا علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله، وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٩/ ١٠٥.

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم ﴾ روي عن الكلبي أنها نزلت في بدر، وهو الذي يقتضيه كلام الجمهور، والغُنْمُ بمعنى الربح، وكذلك المغنمُ، والغنيمةُ، وفسروها بما أُخذ من الكفار قهراً، بقتالٍ أو إيجاف فما أخذ اختلاساً لا يُسمى غنيمة ﴿ مِّن شَىْءٍ ﴾ مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط والمخيط، خَلاَ أنَّ سَلَب المقتول للقاتل، إذا أنفله الإمام، وكذا الأراضي المغنومة ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾ والجمهور على أن ذكر الله للتعظيم كما في قوله تعالى: ﴿والله ورسُولهُ أحقُّ أن يُرْضُوه﴾ والمراد قسم الخمس على الخمسة الموصوفين في قوله تعالى: ﴿ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وإعادة اللام في ﴿وَلِذِي القربَىٰ﴾ لدفع توهم اشتراكهم في سهم النبي ﷺ، وقرابة النبي ﷺ من بني هاشم، وبني عبد المطلب، وكيفية قسمتها أنها كانت في عهد النبي ﷺ على خمسة أسهم، سهم له ﷺ، وأربعة أسهم للأصناف الأربعة، وأما بعده ﷺ فسهمه للمسلمين وكذا سهم ذوي القربى، وإنما يعطون لفقرائهم، وقيل: سهم الرسول لولي الأمر بعده، وأما الأخماس الأربعة فتقسم بين الغانمين، للراجل سهم وللفارس سهمان ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا ﴾ عطف على الاسم الجليل، أي إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلناه ﴿ عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾ أُريد به من الملائكة والآيات ﴿ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ أي الفريقان من المؤمنين، والكافرين، سُمِّي بالفرقان، لفرقه بين الحق والباطل ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومنه نصركم مع قلتكم، وكثرة أعدائكم.

﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ العُدْوةُ: شَطُّ الوادي، وأصلهُ من العَدْوِ والتجاوز، والدنيا تأنيث الأدنى، أي إذ أنتم نازلون بشفير الوادي الأقرب إلى المدنية ﴿ وَهُم ﴾ أي المشركون ﴿ بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ ﴾ أي البعدىٰ من المدينة، وهي تأنيث الأقصى ﴿ وَٱلرَّكْبُ ﴾ أي العيرُ وأصحابها «أبو سفيان» وأصحابه، وهو اسم جمع راكب ﴿ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ أي في مكان أسفل من مكانكم، يعني ساحل البحر، وفائدةُ هذا التوقيت الإخبارُ عن الحالة الدالة على قوة شأن العدو وشوكته، وتكامل عُدَّته، وضعف شأن المسلمين، وأنَّ غلبتهم في مثل هذه الحال، ليست إلاَّ صنعاً من الله تعالى، وباهر قدرته ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ﴾ أي لو تواعدتم أنتم وهم القتال، ثم علمتم حالكم وحالهم، لاختلفتم أنتم في الميعاد هيبةً منهم، ويأساً من الظفر عليهم ﴿ وَلَٰكِن ﴾ جمع بينكم على هذه الحالة من غير ميعاد ﴿ لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ حقيق بأن يفعل، وهو نصر أوليائه، وقهر أعدائه ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ أي ليموت من يموت عن حجة عاينها، ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها، فلا يبقى محلٌّ للتعلل بالأعذار، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي بكفر من كفر وعقابه، وإيمان من آمن وثوابه.

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ الجمهور على أنه ﷺ أري ما أُري في النوم، وهو الظاهر المتبادر، وحكمة إراءتهم قليلاً أن يخبر أصحابه، فيكون ذلك تثبيتاً لهم ﴿ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ ﴾ أي لجبنتم ﴿ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ أي أمر القتال وتفرقت آراؤكم في الثبات، والفرار ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أي أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ والمراد أنه تعالى يعلم ما سيكون فيها من الجرأة والجبن، والصبر والجزع، ولذلك دبَّر ما دبَّر.

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ ﴾ أي إذ يبصركم أيها المؤمنون ﴿ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ وإنما قلَّلهم في أعين المسلمين، تثبيتاً لهم وتصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ. قال ابن مسعود: لقد قُلّلوا في أعيننا حتى قلت لرجلٍ إلى جنبي أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ حتى قال أبو جهل أن محمداً وأصحابه أكلة جزور، قلَّلهم في أعينهم قبل التحام القتال، ليجترؤوا عليهم، ولا يستعدُّوا لهم، ثم كثَّرهم حتى يرونهم مثليهم، لتفاجئهم الكثرة فتبهتهم، وتكسر قلوبهم، وهذا من عظائم آيات تلك الواقعة، فإن البصر وإن كان قد يرى الكثير قليلاً والقليل كثيراً، لكن لا على هذا الوجه، ولا إلى هذا الحدِّ، وإنما يتصور ذلك بصد الله الأبصار عن إبصار بعض دون بعض ﴿ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ كرَّره لأن المراد بالأمر الأول، القتال على الوجه المحكي، وههنا إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وحزبه ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ﴾ أي تصير ﴿ ٱلْأُمُورُ ﴾ فيصرّفها كيف يريد، لا رادَّ لأمره، ولا معقب لحكمه، وهو الحكيم المجيد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي حاربتم جماعة، ولم يصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار، واللقاء ممّا غلب استعمالُه في القتال ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ للقائهم في مواطن الحرب ولا تفروا ولا تنهزموا ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ مستمدين منه مستعينين به، مترقبين لنصره مستظهرين لذكره ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة، وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله، وأن يلتجىء إليه عند الشدائد، ويقبل عليه فارغ البال، واثقاً بأن لطفه لا ينفكُّ عنه في شيء من الأحوال وفي الحديث الشريف «لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا..»[1] الحديث. وإنما نهى ﷺ عن التمني، لما فيه من صورة الإعجاب، والوثوق بالقوة، ويتضمن قلة الاهتمام بالعدو وتحقيرهم، وهذا يخالف الاحتياط.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون، فيندرج فيه ما أمر به ههنا اندراجاً أولياً ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ باختلاف الآراء كما فعلتم ببدر وأُحد، تنازع القوم أي اختلفوا والتنازع أن يحاول كل واحد من الاثنين، أن ينزع صاحبه مما هو عليه ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾ فتجبنوا عن عدوكم، وتضعفوا عن قتالهم ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ قوتكم ودولتكم، فإنها مستعارة للدولة، من حيث إنها في تمشي أمرها ونفاذه، مشبهة بها في هبوبها ونفوذها ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ على شدائد الحرب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالإمداد والإعانة.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ٦/١٠٩ ومسلم رقم ١٧٤٢ في الجهاد أيضاً.. وتتمة الحديث «واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف، ثم قال النبي ﷺ: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم» وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٢/٥٦٨.

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم ﴾ يعني أهل مكة، حين خرجوا منها لحماية العير ﴿ بَطَرًا ﴾ فخراً وأشراً ﴿ وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة، أتاهم رسول أبي سفيان وقال: ارجعوا فقد سلمت عِيُركم، فقال أبو جهل: لا واللهِ حتى نقدم بدراً، فنشرب فيها الخمور، وننحر الجزور، ونطعم بها مَنْ حَضَرنا حتى تهابنا العربُ، فوافوها ولكن سُقوا كأس المنايا بدل الخمر، وكانت أموالهم غنائم، والمقصود من الآية، نهيُ المؤمنين أن يكونوا أمثالهم، في البطر والرياء، وأمرهم بأن يكونوا أهل تقوى وإخلاص ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ الناس ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي ليمنعوا عن دين الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فيجازيهم عليه، وفيه وعيد وتهديد.

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ بأن شجَّعهم على لقاء المسلمين، وزين لهم أعمالهم في معاداة المؤمنين، بأن وسوس إليهم ﴿ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ﴾ ألقى في رَوْعهم، وخيَّل إليهم أنهم لا يُغلبون، لكثرة عددهم وعُدَدِهم فالقول مجاز عن الوسوسة ومعنى ﴿ جَارٌ لكُم ﴾ أي معين وحافظ لكم، والجار الذي يجير غيره أي يؤمنه مما يخاف ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ ﴾ أي تلاقى الفريقان المسلمة، والكافرة، ورأى

اللعينُ الملائكة ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ رجع القهقرى، و ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ مَثَلٌ يضرب فيمن تباعد عن الحق كل التباعد، ففي الكلام استعارة تمثيلية، شبَّه بطلان كيده بعد تزيينه، بمن رجع القهقرى عما يخافه ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ تبرأ منهم لمّا رأى إمداد الله لهم بالملائكة، وخاف عليهم، ويحتمل أن يكون معنى ﴿أَخَافُ اللهَ﴾ أخاف أن يصيبني بمكروه من الملائكة ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ من كلام اللعين وهو الظاهر، وكذب عدوُّ الله في قوله: ﴿إِنِي أَخَافُ اللهَ﴾ فلو خاف الله لعبده وأطاعه، ولكنه أراد أن يبرّر سبب انهزامه من المعركة.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي الذين لم يطمئنوا إلى الإيمان بعد، وبقي في قلوبهم شبهة ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعنون المؤمنين الذين مع الرسول ﷺ ﴿دِينُهُمْ﴾ حتى تعرضوا لما لا قدرة لهم عليه، فخرجوا وهم ثلاثمائة وسبعة عشر إلى زهاء الألف، توهماً أنهمُ ينصرون بسببه، روي عن الحسن أن هؤلاء المنافقين لم يشهدوا القتال يوم بدر، وأهل بدر كانوا خلاصة المؤمنين ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ جواب لهم، وردٌّ لمقالتهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يذلُّ من استجار به، ولا يُخذل من توكل عليه ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل بحكمته ما تستبعده العقول، وتحار في فهمه ألباب الفحول.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ خطاب للنبي ﷺ أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب، والمضارع هنا بمعنى الماضي، لأن «لو» تردُّ المضارع ماضياً أي ولو رأيت ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ببدر والمفعول محذوف أي ولو ترى الكفرة أو ترى حالهم حين تقبض أرواحهم الملائكة ﴿يَضْرِبُونَ

وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ أي يضربون ما أقبل منهم وما أدبر، يعني جميع أجسادهم، ويقولون: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي عذاب النار في الآخرة، فهو بشارة لهم من الملائكة بما هو أدهى وأمرّ، مما هم فيه، والتعبيرُ ﴿ذوقوا﴾ قيل: للتهكم، وفيه نكتة أخرى، وهو أنه قليل من كثير، وأنه مقدمة وبهذا الاعتبار يكون فيه المبالغة، وجواب لو محذوف، أي لرأيت أمراً فظيعاً لا يكاد يوصف.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الضرب والعذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصي ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب، و «ظلّام» لنفي الظلم بأنواعه، وهي للنسبة مثل: البزَّاز، والعطَّار، والنجَّار، أي لا يُنسب إليه الظلم أصلاً.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ﴾ أي دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون، وهو عملهم وشأنهم الذي دأبوا فيه أي داموا عليه ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ من قبل آل فرعون ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ﴾ كما أخذ هؤلاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يغلبه في دفعه شيء.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى العذاب منوطاً بأعمالهم السيئة ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي

ذلك كائن بسبب أن الله تعالى ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا﴾ أي لم ينبغ له سبحانه، ولم يصح في حكمته، أن يكون بحيث يغير نعمة أيّ نعمة كانت أنعم بها ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ من الأقوام ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي ذواتهم من الأعمال والأحوال التي كانوا عليها، وقت ملابستهم للنعمة، ويتصفوا بما ينافيها، كحال قريش المذكورين، حيث كانوا قبل البعثة عبدة أصنام، مستمرين على حال مصححة، لإفاضة نعم الإمهال، فلما بُعث النبي ﷺ غيَّروها على أسوأ حال منها حيث كذبوه ﷺ وعادوه ومن تبعه من المؤمنين، وتحزَّبوا عليهم، وقطعوا أرحامهم، فغيَّر الله تعالى ما أنعم به عليهم من نعمة الإمهال، ووجَّه إليهم نِبال العقاب والنَّكال، وأصل ﴿يكُ﴾ يكن فحذفت النون تخفيفاً لكثرة استعماله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي وبسبب أنه تعالى سميع عليم، يسمع ويعلم جميع ما يأتون ويذرون.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ التكرار للتأكيد، وقيل: الأول فيما فعلوه، والثاني فيما فُعل بهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم﴾ إخبار بترتب العقوبة عليه ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي معاصيهم المتفرعة على كفرهم ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ عطف على أهلكنا وفيه إيذان بكمال هول الإغراق ﴿وَكُلٌّ﴾ أي كل من الأمم المكذبة ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعصية، وهم الواضعون الكفر والمعصية مكان الإيمان والطاعة، ولذلك أصابهم ما أصابهم.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ بعدما شرح أحوال المهلكين، شرع في بيان أحوال البعض منهم، وجُعلوا شر الدواب لا شر الناس، إيماء إلى أنهم بمعزل

من مجانستهم، وإنما هم من جنس الدواب، ومع ذلك شر من جميع أفرادها حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل﴾ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في حكمه وقضائه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي أصرُّوا على الكفر، ولجُّوا فيه ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فلا يتوقع منهم الإيمان لأنهم مطبوعون على الكفر عن ابن عباس: هم نفر من عبد الدار.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ المعاهدة هي عبارة عن إعطاء العهد وأخذه من الجانبين، أي أخذت منهم عهدهم بأن لا يعينوا المشركين ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ صيغة الاستقبال للدلالة على تجدد النقض، وكونهم على نية في كل حال، أي ينقضون عهدهم ﴿فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ من مرات المعاهدة ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ الله في غدرهم، ويستمرون على النقض، ولا يبالون بما فيه من العار والنار، والآية نزلت في يهود بني قريظة، عاهدوا رسول الله ﷺ أن لا يمالئوا عليه، فأعانوا المشركين بالسلاح فقالوا نسينا، ثم عاهدهم ﷺ فنكثوا ومالؤوا عليه ﷺ يوم الخندق، وركب كعب إلى مكة فحالفهم على حرب رسول الله ﷺ.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ شروع في بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم، أي إذا كان حالهم كما ذكر فإمّا تظفرنّ بهم ﴿فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم﴾ أي ففرق تفريقاً عنيفاً، بأن تفعل بهم من النكاية والتعذيب، ما يوجب أن تنكل ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي من وراءهم من الكفرة، والتشريدُ: التفريق مع الاضطراب فالمعنى: إن ظفرت بهؤلاء الذين ينقضون العهد مراراً فافعل بهم فعلاً ليخاف من وراءهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون بهم، فيرتدعوا عن النقض وعن الكفر.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ ﴾ معاهدين ﴿ خِيَانَةً ﴾ نقض عهد بأمارات تلوح لك ﴿ فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي فاطرح إليهم ﴿ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ على طريق مستوٍ، بأن تظهر لهم النقض، كي لا يكون من قبلك شائبة خيانة[1] ولزومُ الإعلام عند أكثر العلماء، إذا لم تنقض مُدَّة العهد، أو لم يستفضْ نقضُهم له، أمَّا إذا انقضت المدة، أو استفاض النقض وعلمه الناس، فلا حاجة إلى ما ذُكر، ولهذا غزا النبي ﷺ أهل مكة، من غير نبذ لمعاونتهم بني كنانة، على قتل خُزاعة، حلفاء النبي ﷺ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ تعليل الأمر بالنبذ، كأنه قيل: وإما تعلمنَّ من قوم خيانة، فانبذ إليهم، ثم قاتلهم، إن الله لا يحب الخائنين، وهم من جملتهم، وعن عمر بن عنبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم عهدٌ فلا يشدَّ عقده، ولا يحلّها، حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء»[2].

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ۖ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

---

(١) قال النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٩٢: هذا من معجز ما جاء في القرآن، مما لا يوجد في الكلام مثلُه، على اختصاره وكثرة معانيه، والمعنى: إمَّا تخافنَّ خيانة من قوم بينك وبينهم عهد، فانبذ إليهم العهد، أي قل لهم: قد نبذت إليكم عهدكم، وأنا مقاتلكم، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك فيكون ذلك خيانة، فأوجز الله ذلك كله في هذه الآية الكريمة ﴿فانبذ إليهم على سواء﴾ ولله درُّ التنزيل.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١١١ وأبو داود في الجهاد ٣/ ٨٣ والترمذي في السير ٥/ ٢٠٣.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ أي لا يحسبن أولئك الكافرون أنفسهم سابقين، أي مفلتين من أن يُظفر بهم، والاقتصار على دفع هذا التوهُّم، للتنبيه على أن ذلك مما لا يحوم حول وهمهم، وإنما الذي يمكن أن يدور في خلدهم حب النجاة من الهلاك ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي لا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم، وفيه تسلية للرسول ﷺ في أنهم في قبضة الله عز وجل، لا يعجزون الله من الانتقام في الدنيا أو في الآخرة.

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم﴾ خطاب لكافة المؤمنين، أي أعدُّوا لقتال الكفار على الإطلاق ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ من كل ما يُتقوى به في الحرب أُطلق عليه القوة مبالغةً، وإنما ذكر هنا لأنه لم يكن لهم في بدر استعداد تام، فنبّهوا على أن النصر من غير استعداد، لا يتأتّى في كل زمان، عن عُقبة بن عامر أنه قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وأعدُّوْا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ «أَلاَ إنَّ القوَّة الرميُ، قالها ثلاثاً» (١) والظاهر العموم، إلا أنه خصَّ الرمي وهو من قبيل قوله ﷺ: «الحجّ عرفة» فهذا لا ينفي غيره، لأن معنى الآية على وجوب الاستعداد لجهاد العدو، بجميع ما يمكن من الآلات، وكل ذلك من فرض الكفاية، والتاريخ سجَّل السيف سلاحاً في الحروب، ومرت العصور، وتطوَّر السلاح إلى السيارات المدرَّعة، والطيارات القاذفة، والغواصات المدمرة، والغازات الخانقة وغيرها، والشعوب الإسلامية مشمولة بهذا النداء الإلهي ﴿وأعدُّوا﴾ فالمراد من القوة معنى شامل لأنواع القوى، فقد عمَّ الداء العُضالُ، واشتد النكال، وملك البسيطة أهل الكفر والضلال، وتعيَّن على أئمة المسلمين الاستعداد التام، ولعل فضل ذلك الرمي، يثبت لهذا الرمي في زماننا، لقيامه مقامه في الذبِّ عن بَيضة الإسلام ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ اسم للخيل التي تربط

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ١٣/ ٦٤ بلفظ «أَلاَ إنَّ القوةَ الرميُ، أَلاَ إنَّ القوةَ الرميُ، أَلاَ إنَّ القوةَ الرميُ» كررها ثلاث مرات، ورواه أبو داود رقم ٢٥١٥ وابن ماجه رقم ٢٨١٣ ولم يخرجه البخاري.

في سبيل الله، والرباط بالكسر ما تشدُّ به الدابة، والمراد به هنا: المربوط مطلقاً، إلا أنه استعمل في الخيل، وخُصَّ بها لأنها آلة الجهاد في كل زمان، والعطف على القوة للإيذان بفضلها على سائر أفرادها، كعطف جبريل على الملائكة، في قوله سبحانه: ﴿مَنْ كانَ عَدُوّاً للهِ ومَلَائِكتِهِ، وَرسُلِهِ، وجبْرِيل وميكال، فإن الله عدوٌّ للكافرين﴾[1] ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ أي تخوّفون به ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهم كفار مكة خُصُّوا بذلك لغاية عتوهم، ومجاوزتهم الحدَّ في العداوة ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ من غيرهم من الكفرة قيل: هم اليهود، وقيل: المنافقون، وقوله سبحانه: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ أي لا تعرفونهم بأعيانهم ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أي يعلمهم على الحقيقة، ويعلم خطرهم وضررهم، وما هم عليه من العداوة ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعداد القتال أو لسائر وجوه الخير ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي يؤدى بتمامه إليكم جزاؤه ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ بتضييع العمل أو نقص الثواب، وفي التعبير عن ذلك بالظلم، مع أن له تعالى أن يفعل ما يشاء، لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك.

﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟﴾ جَنَحَ: مال، أي وإن مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ للصلح والاستسلام ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ للسلم أي فمل إليها ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي فوّضْ أمرك إليه سبحانه، فإن الله يعصمك من مكرهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنياتهم، فيؤاخذهم بما يستحقونه، ويردُّ كيدهم في نحورهم.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٩٨.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ بإظهار السِّلم والمحبة، وإبطان الحرب والكيد ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ فاعلم بأن الله كافيك من شرورهم، وناصرك عليهم، فلا تبال بهم ﴿هُوَ﴾ عزَّ وجل ﴿ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ تعليل لكفايته تعالى إياه ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من المهاجرين والأنصار.

﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ مع ما جُبلوا عليه من الحميَّة والعصبيَّة، والتهالك على الانتقام، بحيث لا يكاد يأتلف فيهم قلبان، حتى صاروا بتوفيقه تعالى كنفس واحدة[1] ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ لتأليف ما بينهم ﴿مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ لتناهي عداوتهم، وقوة أسبابها ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ جلَّت قدرتُه ﴿أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ قلباً وقالباً ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ كامل القدرة والغلبة، لا يستعصي عليه سبحانه شيء مما يريده ﴿حَكِيمٞ﴾ يعلم المصالح فيوجدها بمقتضى حكمته عزَّ وجلَّ، ومن آثار حكمته تدبير أمورهم، على وجه أحدث فيهم التوادَّ والتحاب، فاجتمعت كلمتهم وصفوفهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦﴾.

---

(١) لا شك أن تأليف القلوب مع ما كانوا عليه من العداوة والبغضاء، من أعظم الآيات الربانية، فقد كانت الدماء تجري بينهم كالأنهار، حتى جاءهم الإسلام فجعلهم إخوة متحابين في الله، وانظر ما كتبه أبو حيان في البحر المحيط ٤/ ٥١٤ فقد أجاد فيه وأفاد، وكذلك الزجاج في معاني القرآن ٢/ ٤٦٨.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ شروعٌ في بيان كفايته تعالى إياه، في جميع أموره الظاهرة والباطنة ﴿ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ﴾ أي كافيك الله في جميع أمورك ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي كفاك وكفى أتباعَك اللهُ ناصراً، والآية نزلت في غزوة بدر حيث نصر الله جنده وأولياءه المؤمنين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ التحريضُ على القتال: الحثُّ عليه، أي بالغ في حثهم على القتال في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله المأمور به ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ شرط في معنى الأمر، بمصابرة الواحد للعشرة، والوعد بأنهم إن صبروا غلبوا، بعون الله وتأييده، فالجملة خبرية لفظاً إنشائية معنىً، وقوله: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بيان للألف، وهذا القيد معتبر في المائتين أيضاً ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ أي بسبب أنهم جهلة بالله واليوم الآخر، لا يثبتون عند اللقاء ثبات المؤمنين، رجاء الثواب، ولا يقاتلون امتثالاً لأمر الله تعالى، بل للحمية الجاهلية.

﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لمَّا نزلت: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ﴾ شَقَّ ذلك على المسلمين، حين فُرِضَ عليهم أن لا يفرَّ واحدٌ من عشرة، فجاء التخفيف فقال تعالى: ﴿الآن خفَّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً..﴾ فلما خفَّف الله عليهم من العِدَّة، نقص من الصبر بقدر ما خُفف عنهم[1] والمراد هنا بالضَّعف ضعفُ البدن، لا الضعفُ في الدين وقوله: ﴿بإذْنِ الله﴾ أي بتيسيره وتسهيله ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله، ولمَّا كان الصبر شديد الأهمية، ختم الآية بقوله سبحانه: ﴿والله مَعَ الصَّابرينَ﴾ إشارة إلى تأييدهم، وأنهم منصورون، لأنَّ من كان الله معه لا يُغلب ولا يُقهر.

---

(١) فتح الباري على صحيح البخاري ٨/ ٣١٤ كتاب التفسير.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٩﴾.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ بيان أنَّ ما يُذكر، سُنَّة مطَّردةٌ فيما بين الأنبياء، أي ما صحَّ وما استقام لنبيٍّ من الأنبياء ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ جمع أسير ﴿حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي يكثر القتل، ويبالغ فيه، حتى يُذل الكفر، ويقل حزبه، ويعز الإسلام، ويستولي أهله، من أثخنه المرضُ إذا أثقله وأثخنته الجراحة أي أوهنته بحيث لا حراك به، وأثخن في الأرض سار إلى العدو وأوسعهم قتلاً ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ حطامها بأخذكم الفداء، والخطاب لأصحاب النبي ﷺ مسوق للعتاب ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ يريد لكم ثواب الآخرة، أو سبب نيل ثواب الآخرة من إعزاز دينه، وقمع أعدائه ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يُغلِّب أولياءَه على أعدائه ﴿حَكِيمٞ﴾ يعلم ما يليق بكل حال، ويخصه بها، كما أمر بالإثخان ومنع عن الافتداء، حين كانت الشوكة للمشركين، وخيَّر بينه وبين المنِّ بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنّاً بعدُ وإمَّا فداء﴾ لمَّا تحولت الحال، وصارت الغلبة للمؤمنين، عن ابن مسعود قال: لمَّا كان يوم بدر، جيء بالأسرى وفيهم العباس، وعقيل بن أبي طالب، فقال رسول الله ﷺ: ما ترون بهؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله قومُك وأهلك، استبقِهم لعلَّ الله تعالى أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله كذَّبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، مكنَّا منهم نضربْ أعناقهم، فدخل النبي ﷺ ولم يردَّ عليهم شيئاً، ثم خرج ﷺ فقال: إنَّ الله تعالى يليِّن قلوب رجال فيه حتى تكون ألينَ من اللَّبَنِ، وإنَّ الله ليشدِّد قلوب رجال فيه، حتى تكون أشدَّ من الحجارة، وإنَّ مثلك يا أبا بكر مثلُ إبراهيم إذ قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومثلك يا

عمر كمثل نوح إذ قال: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ أنتم عالة فلا يفلتنَّ أحد إلاَّ بفداء. قال عمر: فَهَوِي رسولُ الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلتُ، وأخذ منهم الفداء، فلما كان الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فقال ﷺ: على أصحابك في أخذهم الفداء، لقد عُرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة، فأنزل الله: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى..﴾[1] الآية. روي أن الأسارى كانوا سبعين، فيهم العباس، وعقيل بن أبي طالب، وكان الفداء لكل أسير أربعون أوقية، والأوقية أربعون درهماً، فيكون مجموع ذلك ألفاً وستمائة درهم لكل أسير.

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح وهو أن لا يعاقب المخطىء في اجتهاده، أو لا يعذب أهل بدر ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أي لأصابكم ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ أي لأجل ما أخذتم من الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره، لكن الذي تسبب العفو عنه، كل ما ذكر واستدل بالآية على أن الأنبياء عليهم السلام قد يجتهدون ويأتي الوحي على خلافه، ولا يقرون على الخطأ.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ من الفدية فإنها من جملة الغنائم، روي أنه لما نزلت الآية الأولى، كفَّ أصحاب رسول الله ﷺ أيديهم عما أخذوا من الفداء، فنزلت هذه الآية، فالمراد مما غنمتم إما الفدية وإما مطلق الغنائم ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أكلاً حلالاً طيباً، وفائدة الإحلال إزاحة ما وقع في نفوسهم منه، بسبب تلك المعاتبة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ فيغفر لكم ما فرط منكم، من استباحة الفداء قبل ورود الإذن ﴿رَّحِيمٌ﴾ يرحمكم ويتوب عليكم إذا اتقيتموه.

---

(١) أخرجه مسلم في إفراده من حديث عمر بن الخطاب ٣/ ١٣٨٣، ورواه الترمذي مختصراً ٥/ ٢٥٣.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٧١ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم ﴾ في ملكتكم واستيلائكم، كأنَّ أيديكم قابضة عليهم ﴿ مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ ﴾ الذين أخذتم منهم الفداء ﴿ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا ﴾ إيماناً وإخلاصاً، ونيةً صحيحة، ﴿ يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ ﴾ من الفداء، والآيةُ نزلت في جميع أسارى بدر، وقيل: إنها نزلت في العباس، وقد روي عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: كنتُ مسلماً، لكنْ استكرهوني!! فقال ﷺ له: إن يكن ما تقول حقاً فالله تعالى يجزيك، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، فافد نفسك وابني أخويْكَ «نوفل بن الحارث» و «عقيل بن أبي طالب»[1]. وروي عنه أنه قال بعد حين: «لقد أبدلني الله خيراً من ذلك، وإني أنتظر من ربي»[2] يعني الموعود بقوله تعالى: ﴿ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ ﴾ ذنوبكم ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ لمن آمن وتاب، والظاهر أن الآية

---

(١) لما وقع العباس عم النبي ﷺ في الأسر، كان معه عشرون أوقية من ذهب، فأُخذت منه ولم تُحسب من فدائه، وكُلف أن يفدي ابنيْ أخيه نوفل، وعقيل، فأدى عنهما ثمانين أوقية من ذهب، وقال النبي ﷺ لأصحابه: أضعفوا على العباس الفداء ـ أي خذوه مضاعفاً منه ـ فأخذوا منه ثمانين أوقية، فقال العباس لرسول الله ﷺ: «لقد تركتني أتكفَّف الناسَ ما بقيتُ»!! فقال له ﷺ: وأين الذهب الذي تركته عند أم الفضل؟ فقال: أيَّ الذهب؟ فقال: إنك قلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حَدَث فهو لكِ ولولدكِ، فقال: يا ابن أخي من أخبرك بهذا؟ قال: ربي أخبرني بذلك، فقال العباس: أشهد أنك صادق، وما علمتُ أنك رسول الله قبل اليوم، فأسلم رضي الله عنه، وأمر ابني أخيه أن يسلما، ففيهم نزلت ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى..﴾ الآية» وانظر صفوة التفاسير ١/ ٥١٣.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤١.

عامة لسائر الأسرى على ما تقتضيه صيغة الجمع، ولا يأبى ذلك رواية أنها في العباس، لما قالوا من أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

﴿ وَإِن يُرِيدُوا ﴾ أي الأسرى ﴿ خِيَانَتَكَ ﴾ بما أظهروا من القول، أي نقض ما عاهدوك من ألاَّ يعودوا لمحاربتك، ولا إلى معاضدة المشركين ﴿ فَقَدْ خَانُوا ٱللَّهَ ﴾ بالكفر ونقض ميثاقهم ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل بدر، فهذا كلام مسوق من جهته تعالى لتسليته ﷺ بطريق الوعد له، والوعيد لهم، روي أنه ﷺ لما أطلقهم من الأسر تعاهد معهم أن لا يعودوا إلى محاربته ﷺ ﴿ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ أي فإن عادوا للخيانة، فسأمكّنك منهم أيضاً، وأقدرك عليهم حسبما رأيتَ يوم بدر ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ فيعلم ما في نياتهم وما يستحقونه من العقاب ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في صنعه يفعل بحكمته كل ما يفعله.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ ﴾ هم المهاجرون، هاجروا من أوطانهم حباً لله ولرسوله ﴿ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ بأن صرفوها إلى المجاهدين والسلاح وأنفقوها على المحاويج ﴿ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ بمباشرة القتال واقتحام المعارك ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ متعلق بجاهدوا، ولعلَّ تقديم الأموال، لما أن المجاهدة بالأموال أكثر، وأتمُّ دفعاً للحاجة، حيث لا تتصوّر المجاهدة بالنفس، بلا مجاهدة بالمال، وقيل: ترتيب هذه المتعاطفات في الآية، على حسب الوقوع، فالأول الإيمان، ثم الهجرة، ثم الجهاد بالمال، ثم بالنفس ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ ﴾ هم الأنصار آووا المهاجرين، وأنزلوهم منازلهم، وبذلوا لهم أموالهم، وآثروهم على أنفسهم ﴿ وَّنَصَرُوٓا۟ ﴾ ونصروهم على أعدائهم

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى الموصوفين بما ذكر من النعوت الفاضلة ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ في النصرة والإرث، وقد كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة، دون الأقارب، كما هو المروي عن ابن عباس والحسن وقتادة فإنهم قالوا: آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فكان المهاجري يرثه أخوه الأنصاري، إذا لم يكن بالمدينة وليٌّ مهاجري واستمرَّ أمرهم على ذلك إلى فتح مكة، ثم توارثوا بالنسب ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ أي من توليهم في الميراث، فلا إرث بينهم، ولا نصيب لهم في الغنيمة، ولو كانوا من أقرب أقاربكم ﴿ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾ إلى المدينة المنورة ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾ أي فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ منهم ﴿ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ أي معاهدة، فإنه لا يجوز نقض عهدهم، بنصرهم عليهم ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فلا تخالفوا أمره، كيلا يحلَّ بكم عقابه.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ أي في الميراث، وهذا بمفهومه مفيد لنفي الموارثة والمؤازرة بينهم وبين المسلمين، ولو كانوا أقارب، ومن هنا ذهب الجمهور إلى أنه لا يرث مسلم كافراً، ولا كافرٌ مسلماً، لقد كان كفار قريش في غاية العداوة لليهود، فلمَّا ظهرت دعوة الرسول ﷺ، تناصروا وتعاونوا على إيذائه، واشتركوا في العداوة، فصارت هذه الجهة موجبة لانضمام بعضهم إلى بعض ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ ﴾ أي إن لا تفعلوا ما أُمرتم به من التواصل بينكم، وتولّي بعضكم لبعض، وقطع العلائق بينكم وبين الكفار ﴿ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي تحصل فتنة عظيمة، وهي ضعف الإيمان وظهور الكفر، لأن المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على العدو، كان العدو ظاهراً، والفساد زائداً ﴿ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ في الدين وهو سفك الدماء، والفساد يحصل من اختلاف الأفكار.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ ﴾ أي هم المؤمنون الكاملون حقاً، لأنهم حققوا إيمانهم بالهجرة من الوطن، ومفارقة الأهل والسَّكن، والانسلاخ من المال والدنيا، لأجل الدين والعقبى، وهو كلام مسوق للثناء عليهم، والشهادة بفوزهم بالقدح المعلّى من الإيمان ﴿ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ في الجنة لا تبعة ولا منة فيه.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ ﴾ أي بعد السابقين إلى الإيمان، والهجرة، والنصرة ﴿ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ ﴾ أي من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار، ألحقهم الله تعالى بالسابقين، تفضلاً منه سبحانه، وترغيباً في الإيمان والهجرة، وهي الهجرة الثانية بعد الحديبية، وهم التابعون بإحسان، وفيه إشارة إلى أن السابقين، هم السابقون بالشرف، وأن هؤلاء دونهم فيه، وبهذا القسم صارت أقسام المؤمنين أربعة، والتوارث إنما هو في القسمين الأوَّلَيْن، ولو اتفق كون المؤمنين في بلد، وفي عددهم قلة، وللكفار شوكةٌ، فيلزمهم الهجرة من وطنهم، لأنه قد حصل فيهم مثال العلة في الهجرة الأولى ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ ﴾ أي ذوو القرابة ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ في التوارث من الأجانب، وهو نسخٌ للتوارث بالهجرة ﴿ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ ﴾ أي في حكمه في القرآن، أخرج الطبراني عن ابن عباس أنه قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، وورث بعضهم من بعض، حتى نزلت هذه الآية، فتركوا ذلك، وتوارثوا بالنسب، واستدل بها على توريث ذوي الأرحام، الذين ذكرهم الفرضيون، وهم من لا فرض لهم ولا

تعصيب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ ومن جملته ما في تعليق التوارث، بالقرابة الدينية أولاً، وبالقرابة النسبيَّة آخراً، من الحِكَم البالغة، والله تعالى ولي التوفيق، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على خير خلقه محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنفال»

* * *

obeikandl.com